

تاريخ القبول: 2025/04/29

تاريخ الإرسال: 2025/03/13

تاريخ النشر: 2025/04/30

الماء كفاعل إجتماعي: تفاعلات السلطة والاستدامة**Water as Social Agent: Interactions of Power and sustainability**كاكي محمد¹، بن قبي آمنة²جامعة تامنغست (الجزائر)، kaki11socio@gmail.com¹جامعة تامنغست (الجزائر)، benkobbiamina@gmail.com²**الملخص:**

يقدم هذا المقال تحليلا سوسيولوجيا لدور الماء كفاعل إجتماعي مؤثر في تشكيل أنظمة السلطة و الممارسات الثقافية و استراتيجيات الاستدامة، حيث يوضح كيف تشكل إدارة الموارد المائية شبكات إجتماعية معقدة، تعكس تراتبيات السلطة والعدالة التوزيعية، مثل نظام الري التقليدي القائم على التوقيتات المنفق عليها محليا، كما يكشف المقال عن الأبعاد الرمزية للماء في الثقافة الشعبية والدينية حيث يرتبط بالتطهير والانتقال بين الحالات الاجتماعية كالولادة و الزواج، ويعكس قيما إجتماعية كالترشيد و التعاون، من ناحية أخرى يبرز التحدي في التوفيق بين النماذج التنموية الحديثة و المعارف المحلية، حيث تظهر الممارسات التقليدية قدرة على الاستدامة، لكنها تتعارض أحيانا مع السياسات المركزية، يشدد المقال على ضرورة تبني مقاربة تكاملية تربط بين الابعاد البيئية والاجتماعية والثقافية، مع تعزيز المشاركة المجتمعية في صنع القرار.

الكلمات المفتاحية: الماء، الفاعل الاجتماعي، السلطة، الإستدامة.

Abstract :

This article provides a sociological analysis of the role of water as a social actor influencing power structures, cultural practices, and sustainability strategies. It highlights how water resource management forms complex social networks that reflect hierarchies of power and distributive justice, such as the traditional irrigation system based on locally agreed-upon schedules. The article also explores the symbolic dimensions of water in popular and religious culture, where it is associated with purification and transitions between social states such as birth and marriage and reflects societal values like conservation and cooperation. Moreover, the challenge of reconciling modern developmental models with local knowledge is emphasized, as traditional practices demonstrate sustainability but sometimes conflict with centralized policies. The article stresses the necessity of adopting an integrative approach that connects environmental, social, and cultural dimensions while enhancing community participation in decision-making. In this way, water transcends its status as a mere "natural resource" to become an active agent in shaping identities, relationships, and power negotiations, opening avenues for more just and sustainable water policies.

Keywords: water, social actor, power, sustainability.

المؤلف المرسل: كاكي محمد، الإيميل: KAKI11SOCIO@GMAIL.COM

1- مقدمة:

يشكل الماء أحد أهم العناصر المحورية في بناء المجتمعات البشرية عبر التاريخ حيث يتجاوز دوره البيولوجي كضرورة للحياة ليصبح فاعلا اجتماعيا يؤثر في هياكل السلطة وأنماط العلاقات الاجتماعية وممارسات الاستدامة. يهدف هذا المقال إلى تحليل الأبعاد السوسيولوجية للماء من خلال دراسة تفاعلاته مع أنظمة السلطة والهياكل المجتمعية وممارسات الإستدامة، مع التركيز على كيفية تشكيل الماء للعلاقات الاجتماعية والثقافية والسياسية¹، تكمن هذه الدراسة في كونها تقدم رؤية شاملة تتجاوز الفهم التقليدي للماء كمورد طبيعي فحسب إلى اعتباره محركا أساسيا للتغير الاجتماعي والسياسي، و عنصرا فاعلا في تشكيل البنى المجتمعية ونظم القيم والمعتقدات، وصولا إلى دوره في صياغة نماذج الاستدامة المعاصرة.

2- الإطار النظري لدراسة الماء كفاعل اجتماعي:

تستند دراسة الماء كفاعل اجتماعي إلى مجموعة من الأطر النظرية المتكاملة التي تساعد في فهم تعقيدات العلاقة بين الماء والمجتمع. تشكل سوسيولوجيا الموارد الطبيعية إحدى الركائز الأساسية لهذه الدراسة، حيث تنظر إلى الموارد الطبيعية ليس فقط كمواد خام تستخدم لإشباع الحاجات البشرية، بل كعناصر فاعلة في إعادة تشكيل العلاقات الاجتماعية والسياسية². كما تسهم الإيكولوجيا السياسية في توسيع هذا الفهم من خلال تحليل أنظمة إدارة الموارد المائية والعلاقات المتشابكة بين السلطة والسيطرة على الموارد والمعرفة المتعلقة بها².

من النظريات المهمة نظرية الفاعل-الشبكة "Actor-Network Theory" حيث يمكن توظيفها لفهم الماء كفاعل إجتماعي، إذ تتجاوز الثنائية التقليدية بين الطبيعة والثقافة، وتنتظر إلى الظواهر الاجتماعية على أنها شبكات معقدة من التفاعلات بين العناصر البشرية وغير البشرية³. وفق هذا المنظور يمكن فهم الماء كعنصر فاعل يؤثر في تشكيل شبكات العلاقات الاجتماعية والسياسية، وليس مجرد موضوع سلبي للفعل البشري، إذ يتكامل مع هذه الأطر نظريات الاستدامة التي تركز على العلاقة بين الاحتياجات الحالية والمستقبلية، و التي تنظر إلى الماء كرابط محوري بين الأجيال. تشير الأدبيات المعاصرة حول الاستدامة إلى ضرورة أن تأخذ التنمية في الاعتبار الحفاظ على خصائص ومستوى أداء الموارد الطبيعية الحالي والمستقبلي كأساس لشراكة الأجيال المقبلة في المتاح من تلك الموارد⁴. هذا الإطار يسمح بفهم كيفية تحول الماء إلى موضوع للصراع بين المصالح الاقتصادية قصيرة المدى والمصالح البيئية والاجتماعية طويلة المدى.

3-الماء والسلطة: جدلية التحكم والنفوذ:

تشكل العلاقة بين الماء و السلطة أحد المحاور الأساسية لفهم دور الماء كفاعل إجتماعي، تتجلى هذه العلاقة في الممارسات التقليدية لتوزيع الماء في المجتمعات المحلية، كما هو الحال في منطقة القصور بالجنوب الغربي الجزائري، حيث يتبع القصوريون في عملية ري بساتينهم طرقا دقيقة متعارف عليها محليا، يتم فيها تعاقب التوزيع تعاقب الليل والنهار⁵. هذه الممارسات تعكس نظاما إجتماعيا

متكاملا يتأسس على مباديء العدالة التوزيعية و التنظيم الاجتماعي المرتبط بالموارد المائية.

تتخذ السلطة المرتبطة بالماء أشكالا متعددة، منها ماهو مادي يتمثل في البنى التحتية والتقنيات المستخدمة في توزيع الماء، و منها ما هو رمزي يتجلى في المعارف و المهارات المرتبطة بإدارة الموارد المائية. في منطقة القصور يستخدم السكان ساعات شمسية تجمع بين وظيفتي تحديد أوقات الصلاة و ضبط توزيع المياه⁶، مما يشير إلى التداخل السلطة الدينية والسلطة المرتبطة بإدارة الموارد المائية.

تظهر جدلية السلطة والماء أيضا في العلاقة بين المركز والهامش، بين المناطق الحضرية و الريفية وبين الفئات الاجتماعية المختلفة، فمنطقة القصور مثلا ينقسم سكانها إلى فئتين: فئة حضرية وفئة بدوية، وأن الفئة الحضرية القصوريون يعتمدون في حياتهم على مياه العيون المنبجسة من أطراف الأودية، ويعيشون عيشة اكتفاء ذاتي⁷. هذا التقسيم الاجتماعي المرتبط بنمط الاستفادة من الموارد المائية يعكس كيفية تشكل السلطة الاجتماعية من خلال علاقات الإنتاج المرتبطة بالماء، حيث تتطلب إدارة الموارد المائية في سياق التنمية المستدامة إعادة النظر في علاقات السلطة التقليدية. تشير الأدبيات المعاصرة إلى ضرورة عدم الاكتفاء بتعديل أنماط الاستثمار وهياكل الإنتاج، وإنما يستلزم الأمر أيضا تعديل أنماط الإستهلاك السائدة اجتنابا للإسراف وتبديد الموارد وتلوث البيئة⁸. هذا يتطلب

تحولا في هياكل السلطة من النماذج المركزية إلى نماذج أكثر تشاركية تضمن مشاركة المجتمعات المحلية في صنع القرار المرتبط بالموارد المائية.

4-الماء والممارسات الثقافية: تجليات الرمزية والقيم:

يحثل الماء مكانة محورية في المنظومة الثقافية والقيمية للمجتمعات، حيث يتجاوز دوره المادي ليصبح حاملا للرموز والمعاني الثقافية المتنوعة، وتتجلى هذه المكانة في الموروث الشعبي، حيث يكتسي الماء طابعا خاصا في الموروث الشعبي، ويتجلى ذلك في ضرورة وجوده والدعوة إلى حسن استغلاله ومدحه، و استعمال كل الوسائل للحصول عليه⁹.

تتجلى القيمة الرمزية للماء في المأثورات الشعبية والأمثال التي تعكس فلسفة المجتمع تجاه هذا المورد الحيوي. تشير الأمثال مثل : "ارقد الماء ولو كان تحط على الماء" و "ما تهرق ما حتى تصيب ما" إلى الترشيح و الحفاظ على الماء كسلوك اجتماعي متوارث، كما تشير أمثال أخرى "الطعام بلا ما من قلة الفهامة" إلى ارتباط الماء بالغذاء واعتباره جزءا أساسيا من منظومة الحياة اليومية¹⁰.

يرتبط الماء ارتباطا وثيقا بالممارسات الدينية في المجتمعات الإسلامية، حيث يمثل عنصرا أساسيا في طقوس الطهارة و العبادة، حيث أن الماء مطهر للشخص من الكفر و النجاسة و الأدران، فوجب استعماله وعدم التكاسل عن الفروض الدينية بحجة ندرة الماء¹¹. هذا الارتباط بين الماء والممارسات الدينية يعكس تداخل القيم الدينية مع الممارسات اليومية المرتبطة باستخدام الموارد المائية. يستخدم الماء

أيضا في طقوس العبور المختلفة، سواء المرتبطة بالولادة أو الزواج أو الموت، حيث يستخدم في النظافة الشخصية كما يستخدم في شعائر الطهارة الدينية بأشكالها ومناسباتها المختلفة، كما هو الحال في الوضوء الذي يسبق الصلاة، أو للتخلص وللتطهر من دنس الحالات الإستثنائية العارضة كالجنابة والحيض أو غسل الميت المقبل على المحاسبة في القبر¹². هذه الممارسات تعكس دور الماء كوسيط رمزي في عمليات الانتقال بين الحالات الاجتماعية المختلفة، إذ تشكل هذه الأبعاد الثقافية والرمزية للماء عنصرا أساسيا في فهم كيفية تفاعل المجتمعات مع الموارد المائية وإدارتها، وبذلك يعود التوازن إلى العلاقات التي تربطه بالآخرين¹³. هذا الفهم للماء كعنصر محوري في إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية يعزز من فهمنا للماء كفاعل إجتماعي وليس مجرد مورد طبيعي.

5- الماء والتنمية المستدامة: نحو نموذج تكاملي:

تمثل العلاقة بين الماء والتنمية المستدامة أحد المخاور الأساسية في فهم دور الماء كفاعل إجتماعي في السياقات المعاصرة، وتستند مقاربة التنمية المستدامة للموارد المائية إلى مجموعة من المبادئ التي تهدف إلى تحقيق التوازن بين الاحتياجات الحالية والمستقبلية، وتشير الأدبيات المعاصرة إلى أن التنمية المستدامة لا تركز إزاء هذا المفهوم على قيمة عائدات النمو الاقتصادي بقدر ارتكازها على نوعية

وكيفية توزيع تلك العائدات، وما يترتب على ذلك من تحسين للظروف المعيشية للمواطنين حال الربط بين سياسات التنمية والحفاظ على البيئة¹⁴.

يتطلب تحقيق الاستدامة في إدارة الموارد المائية إعادة النظر في النماذج التقليدية للتنمية التي تركز على الإستغلال المكثف للموارد الطبيعية، حيث إن إعادة النظر في أنماط الإستثمار الحالية مع تعزيز استخدام وسائل تقنية أكثر توافقا مع البيئة تستهدف الحد من مظاهر الضرر والإخلال بالتوازن البيئي والحفاظ على استمرارية الموارد الطبيعية¹⁵. هذا التحول في النموذج التنموي يتطلب تغييرا في الممارسات الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة باستخدام الموارد المائية.

و تشكل المعرفة المحلية والممارسات التقليدية في إدارة الموارد المائية مصدرا مهما للاستدامة، حيث يستخدم الفلاحون طرقا دقيقة متعارف عليها محليا في عملية ري بساتينهم، مما يشير إلى وجود نظام متكامل من المعارف والممارسات التي تطورت عبر الزمن لتحقيق الاستدامة في استخدام الموارد المائية¹⁶. هذه المعارف المحلية تمثل رأس مال إجتماعي يمكن البناء عليه في تطوير نماذج مستدامة لإدارة الموارد المائية.

وترتبط استدامة الموارد المائية ارتباطا وثيقا بالقيم والممارسات الثقافية السائدة في المجتمع حيث تشير الأمثال كما أسلفنا سابقا إلى قيم الترشيح والحفاظ على الموارد المائية كجزء من الثقافة المحلية¹⁷. هذه القيم تشكل أساسا معرفيا وأخلاقيا

للممارسات المستدامة في إدارة الموارد المائية، و يتطلب تحقيق الاستدامة في إدارة الموارد المائية تعزيز المشاركة المجتمعية في صنع القرار، كما تشير الأدبيات المعاصرة إلى زيادة ملحوظة في دور وقدرات ومشاركات تنظيمات المجتمع المدني، الأمر الذي يسלט الضوء على ضرورة أن تعمل الحكومات والمنظمات الدولية على تعزيز هذه المشاركة¹⁸. هذا يعكس تحولا في نموذج الحوكمة من النماذج المركزية إلى نماذج أكثر تشاركية تراعي احتياجات أكثر تشاركية تراعي احتياجات ومصالح المجتمعات المحلية.

6-الماء كوسيط للعلاقات الاجتماعية:

الماء يعمل كوسيط فعال في تشكيل وإعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية بمختلف أشكالها، حيث ترتبط عملية توزيع المياه بنظام اجتماعي متكامل يحدد حقوق وواجبات كل فرد في المجتمع. يستخدم الفلاحون مياه العيون، كل حسب المساحة التي يملكها أو يكتريها، مما يشير إلى ارتباط حقوق المياه بنظام الملكية الأرضية وبالتالي بالمكانة الاجتماعية والاقتصادية للأفراد¹⁹.

تشكل المياه عنصرا محوريا في تنظيم العلاقات بين المجموعات الاجتماعية المختلفة²⁰. هذا يعكس كيفية تشكل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية من خلال أنماط استخدام الموارد المائية وإدارتها، يعمل الماء أيضا كوسيط في العلاقات بين المجتمع والبيئة يشير مفهوم التنمية المستدامة إلى ضرورة أن تأخذ التنمية في الاعتبار الحفاظ على الخصائص ومستوى أداء الموارد الطبيعية الحالي والمستقبلي

كأساس لشراكة الأجيال المقبلة في المتاح من تلك الموارد²¹. هذا المفهوم يعكس فهما للعلاقة بين الإنسان والبيئة يتجاوز المنظور الإستغلالي التقليدي إلى منظور أكثر تكاملية يعترف بالترابط العميق بين الإنسان والبيئة.

تتجلى الأبعاد الرمزية للماء في دوره كوسيط للعلاقات الاجتماعية من خلال الممارسات الطقوسية المرتبطة به، إذ أن الماء يعيد الفرد من ذلك الوضع الإستثنائي إلى الحياة العادية، أي أنه يرده إلى المجتمع، وبذلك يعود التوازن إلى العلاقات التي تربطه بالآخرين²². هذا الفهم للماء كعنصر محوري في إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية يعزز من فهمنا لليوم كفاعل إجتماعي وليس مجرد مورد طبيعي، تخضع العلاقات المرتبطة بالماء لديناميكيات السلطة و الهيمنة، حيث يمكن أن تعكس وتعزز أنماط عدم المساواة الاجتماعية والإقتصادية. في الوقت نفسه، يمكن أن تشكل إدارة الموارد المائية مجالا للتعاون والعمل الجماعي، كما هو الحال في نظم الري التقليدية التي تعتمد على التعاون بين أفراد المجتمع²³.

7-النوع الاجتماعي والماء:

تشكل العلاقة بين النوع الاجتماعي والماء أحد الأبعاد المهمة في فهم دور الماء كوسيط للعلاقات الاجتماعية في العديد من المجتمعات التقليدية، حيث ترتبط مهمة جلب المياه والاستخدامات المنزلية للمياه بالنساء، مما يشكل جزءا من تقسيم العمل على أساس النوع الاجتماعي²⁴. هذا التقسيم يعكس ويعزز العلاقات الاجتماعية القائم على النوع، ويمكن أن يؤثر في الوصول إلى الموارد المائية والسيطرة عليها

وتتطلب التنمية المستدامة للموارد المائية مراعاة أبعاد النوع الاجتماعي في التخطيط والتنفيذ، كما يشير مفهوم الإستدامة إلى ضرورة أن لا يشمل مفهوم العائد من التنمية ليشمل كل ما يعود على المجتمع²⁵. وهذا يتضمن ضمان المساواة بين الجنسين في الوصول إلى الموارد المائية والاستفادة منها والمشاركة في إدارتها.

8- نحو فهم متكامل للماء كفاعل اجتماعي:

يتجاوز فهم الماء كفاعل اجتماعي النظرة التقليدية التي تعتبره مجرد مورد طبيعي، ليصبح عنصرا فاعلا في تشكيل العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية، كما يتطلب هذا الفهم المتكامل رؤية تتجاوز الثنائية بين الطبيعي والثقافي، وتعترف بالماء كعنصر فاعل في الشبكات المعقدة²⁶. تتجلى أهمية هذه الرؤية في فهم ديناميكيات السلطة المرتبطة بإدارة الموارد المائية، حيث تعكس طرق توزيع المياه في المجتمعات المحلية هياكل السلطة والتراتيبات الاجتماعية²⁷. كما تبرز الأبعاد الرمزية والثقافية للماء من خلال الممارسات اليومية والطقوسية، حيث يعمل الماء كوسيط في عمليات الانتقال بين الحالات الاجتماعية المختلفة²⁸.

يرتبط هذا الفهم المتكامل بمفهوم الاستدامة الذي يتجاوز البعد الاقتصادي ليشمل الأبعاد الاجتماعية والبيئية والثقافية²⁹. إن تبني هذه الرؤية المتكاملة للماء كفاعل

إجتماعييفتح آفاقا جديدة لفهم العلاقة بين الإنسان والبيئة، ويسهم في تطوير سياسات وممارسات أكثر إستدامة وعدالة في إدارة الموارد المائية³⁰.

خاتمة:

تناول هذا المقال الأبعاد المختلفة للماء كفاعل إجتماعي، من خلال تفاعلاته مع أنظمة السلطة والهياكل المجتمعية وممارسات الاستدامة، وكيف أن دور الماء يتجاوز البعد المادي كمورد طبيعي ليصبح عنصرا محوريا في تشكيل العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية، وكيف يعمل كوسيط في العلاقات بين الأفراد والجماعات، وبين المجتمع والبيئة.

تظهر جدلية السلطة والماء في مختلف السياقات، من النظم التقليدية لتوزيع المياه في المجتمعات المحلية إلى السياسات الوطنية والدولية لإدارة الموارد المائية. كما تتجلى الأبعاد الثقافية والرمزية للماء في الممارسات اليومية والطقوسية والدينية، والتي تعكس المكانة المحورية للماء في المنظومة القيمية والرمزية للمجتمعات، حيث تشكل التنمية المستدامة للموارد المائية تحديا معقدا يتطلب فهما متكاملًا للأبعاد الاجتماعية والثقافية والسياسية للماء. يتطلب هذا الفهم تجاوز المقاربات التقنية البحتة إلى مقاربات أكثر شمولية تأخذ في الاعتبار دور الماء كفاعل إجتماعي وتعترف بالترابط العميق بين الإنسان والبيئة.

الهوامش:

- 1- بيبير بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة سلمان قعفراني، بيروت المنظمة العربية للترجمة، 2009، ص 43.
- 2- تيم إنجولد، الإدراك البيئي: مقالات في سبل العيش والسكن والمهارة، لندن، روتلديج، 2011، ص 87.
- 3- برونو لاتور، في السوسيولوجيا التجميعية: بعض الإيضاحات، في إعادة التفكير الاجتماعي: مقدمة في نظرية الفاعل-الشبكة، أكسفورد، مطبعة جامعة أكسفورد، 2005، ص ص 64-70.
- 4- محمد عبد البديع، التنمية المستدامة: المفهوم والأبعاد، مجلة السياسة الدولية، العدد 167، 2007، ص 55.
- 5- محمد عبد الكريم، الممارسات التقليدية في إدارة المياه بواحات الجنوب الجزائر، الجزائر، دار المعرفة، 2018، ص 32.
- 6- نفس المرجع، ص 35
- 7- نفس المرجع ص 40.
- 8- كريم الحسن، التنمية المستدامة و غدارة الموارد الطبيعية، بيروت، دار النهضة، 2019، ص 67.
- 9- أحمد بن علي، الموروث الشعبي والماء في المناطق الصحراوية، الرباط، مركز الدراسات الصحراوية، 2005، ص 54.

- 10- نفس المرجع، ص ص 56-58.
- 11- أحمد أبو زيد، الرمزية في الممارسات الدينية، القاهرة، دار المصرية، 2010، ص 75.
- 12- نفس المرجع، ص 78.
- 13- نفس المرجع، ص 80.
- 14- الحسن، التنمية المستدامة وإدارة الموارد الطبيعية، مرجع سابق، ص 43.
- 15- نفس المرجع ص 45.
- 16- عبد الكريم، الممارسات التقليدية في إدارة المياه، مرجع سابق، ص 38.
- 17- بن علي، الموروث الشعبي والماء، مرجع سابق، ص 57.
- 18- فريد زكرياء، مستقبل الحرية: الديمقراطية غير الليبرالية في الوطن وخارجه، نيويورك، دبليو دبليو نورتن، 2003، ص 132.
- 19- عبد الكريم، الممارسات التقليدية في إدارة المياه، مرجع سابق، ص 42.
- 20- نفس المرجع ص 44.
- 21- عبد البديع، التنمية المستدامة: المفهوم والأبعاد، مرجع سابق، ص 56.
- 22- أبو زيد، الرمزية في الممارسات الدينية، مرجع سابق، ص 82.

- 23- روبرت فارمر، المجتمعات المحلية وإدارة الموارد المائية: تجارب عالمية، لندن، ايرشكان، 2012، ص 94.
- 24- فاندانا شيفا، حروب المياه: الخصخصة والتلوث والريح، كمبريدج: ساوث اند بيرس، 2002، ص 112.
- 25- الحسن، التنمية المستدامة وإدارة الموارد الطبيعية، مرجع سابق، ص 48.
- 26- محمد شعبان، الماء والهوية: قراءة في الأبعاد الثقافية للمياه، مجلة إنسانيات، العدد 03، 2019، ص 178.
- 27- سعيد الحفيان، إدارة الموارد المائية في المجتمعات المحلية، دمشق، دار الفكر، 2017، ص 92
- 28- ليلي العلوي، الماء والطقوس الاجتماعية في المجتمعات التقليدية، المجلة المغربية للأنثروبولوجيا، العدد 2، 2020، ص 125.
- 29- عادل عبد الله، نحو نموذج متكامل للتنمية المستدامة للموارد المائية، مجلة الدراسات البيئية، العدد 4، 2018، ص 210.
- 30- سمير المقدسي، الماء والمجتمع: قراءات في سوسيولوجيا الموارد الطبيعية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2022، ص 156.